فصل من كتاب «سيرة شهية»

أحلام جول ڤرن [1]

تتحقق

ان كثيراً من الناس تستسموا ذروة الشهرة بما عملت أيديهم ، ولكن جول ڤرن حلّ في الأذهان علماً سامياً من أثر ما تخيّل . وان قليلاً مما كتب صدر عن وحي الحواس : اللمس والبصر ولكن أحلامه التي تحققت كانت مدى حياته ولحمها . ولقد ظل طول حياته في حلم رسم كلماته على قرطاس ، وعاش عمره كاملاً في ناحية من وطنه — فرنسة — غير انهُ طاف على متن خياله من قطب الى قطب ، واندفع به الى قاع البحر ، وسما به الى آفاق السموات العلى

ولما ولد جون ڤرن كان العلم يتخبط في عهد السحر ، وحين أصبح كاتباً ناشئاً في باريس كان العلم لا يزال بين جدران للعمل لا يظفر الباحث فيه بشيء سوى التعرّض لسخرية رفاقه وجيرانه المرتابين . ولكن تآليفه أسدت الى العلم خدمة جليلة لانها قرّبت العلوم من أذهان الناس فغدا قراؤه — برغمهم — مكتشفين وكيميائيين وفلكيين وملاحين

وذات يوم — بعد عشر سنوات من موت جول ڤرن — جلس الجنرال لويس هيبرت لبوتي — وكان حينئذٍ مارشال فرنسة — ينشيء خططاً حربية للمستقبل ويعرضها على أحد رجال الحكم فدقّق الموظف في هذه الخطط ثم ابتسم وهو يقول « ان هذا ، يا سيدي الجنرال ، هو صدى صوت جول ڤرن » فأشار الجنرال موافقاً ثم قال « نعم ، انها تشبه حديث جول ڤرن ، ولكن الامم التي سلكت سبيل الرقي — في مدى عشرين سنة — لم تفعل شيئاً سوى أن تترسم خطاه » . واذا كان نشاط جول ڤرن الكتابي وانتاجه العقلي قد امتدا خمساً وأربعين سنة ، فلقد ظلت آثار خواطره تتصل في الاذهان مدى قرن من الزمان ، تدفع العقول بسحرها الى الشهرة والسمو والاختراع

ولشدّ ما يندهش العقل ان هو تصفح الآن نبوءاته ، لانهُ يعجب أشد العجب لعبقرية البعض ، ثم هو يبتسم ساخراً لما في القليل منها من سذاجة ، ولا عجب أن يكون فكر ڤرن قد صدق وان أخطأ أحياناً في وصف طريقة العمل . فقد قال ان الناس سيرسمون

---

(١) نقلها : كامل محمود حبيب [illegible]

طرقاً في السماء ولقد تحقق ذلك وقد كشف عن مصدر جديد للطاقة هو أورانيوم ٢٣٥ [1] هذا وقرن من العلماء يفكر تفكيراً جديّاً في الانتقال بين السيارات والناس يحلقون في الأجواء العليا ويغوصون في أعماق البحار . ولقد كانت الأركان الخمسة التي اعتمد عليها ڤرن هي علوم الفيزيقيا والكيمياء والجغرافيا والفلك والجيولوجيا ؛ ومنها توقع أن يبزغ فجر التقدم فتستحيل كثير من المواد شيئاً هو « وسائل الترف الحديثة »

وحين كتب جول كتابه « عشرون الف فرسخ تحت البحر » لم يكن يجول بخاطره ان كلماته ستدفع رائداً الى أن يسلك طريقه في أعماق المحيط . فلقد طبع هذا الكتاب في سنة ١٨٧٠ ، ثم بعد هذا التاريخ بست سنوات كان على الشاطىء الآخر من المحيط الاطلسي ، في مدينة نيوجيرسي الاميركية ، صبي في العاشرة ينكب على قصة رحلة الكابتن نيمو يقرأها فيقرأها . وجذبت الفكرة الصبي فأذهلته فراح يتصيّد كل كتاب يتحدث عن الرحلات في قاع المحيط . وحين بلغ هذا الصبي الثانية والثلاثين ، اندفع سيمون لايك الى متاهات البحر يقطع فيافيه في غواصته « أرجونوت » وهي أول غواصة نجحت في خوض عباب اليم . وأدّى سيمون لايك ما عليه من دين حين كتب أول سطر في تاريخ حياته « لقد كان جول ڤرن — الى حد ما — قائدي الاعلى الذي رسم نهج حياتي »

وحين ترامى خبر رحلة الأرجونوت الى فرنسة في سنة ١٨٩٨ أرق جول ڤرن بالتهنئة ولكنّ لايك قال لقد طبعت القصة في فرنسا وأرق جول ڤرن يهنئني على حين أن كتبه هي التي دفعتني الى الغوص في طبقات الماء ، وكنت دائماً أقول ان جون ڤرن عالم قبل أن يكون قصصيّاً يكتب القصة الخيالية ، لأن خياله نفّاذ مخترق الحجب ، وهذا النوع من الخيال لا غنى لمخترع عنهُ ، اذا اقترن بمعلومات دقيقة ممتازة

وكانت تجربة سيمون لايك فذّة في نوعها ، ولكن قراء القرن التاسع عشر كانوا يعجبون من الأخيلة التي ربطت بين الهليكوبتر ، والآلة الطائرة « البتروس » والمنطاد المتحرك في كتاب ڤرن « مركب السحاب » . وفي سنة ١٩٠٣ ، أي بعد انقضاء سبع عشرة سنة على هذه القصة استطاع اورفيل وولبر ريط ان يطيرا تسعاً وخمسين دقيقة فوق رمال كيتي هوك في كارولينة الشمالية بأميركة ، واجتازت المناطيد المحيط الاطلسي في العقد الرابع من هذا القرن . وفي سنة ١٩٤١ ضرب إيجور سيكورسكي رقماً قياسيّاً عالميّاً اذ طار مدة ساعتين بالهليكوبتر الذي صنعه

والآن أصبحت الأنباء التي تثير الاعجاب في عالم الطيران هي أنباء صنع الطائرات —

(١) راجع مقتطف دسمبر سنة ١٩٣٩ صفحة ٥٠٠ ويوليو ١٩٤٠ صفحة ١٢٤

ناقلات الرسائل والجنود وطائرات التدريب والقاذفات — من بعض العجائن والخشب. على حين ان ڤرن أوصى ان تصنع طائرته «ألبتروس» من ورق مضغوط لا تستطيع أقسى الآلات الحادة ان تخدشه، وذلك برغم قلة معارفه العلمية. على أنه من الخطأ ان يقال ان ڤرن ساهم بقسط في مخترعات الطيران، لانهُ لم يكن مخترعاً بل كاتباً أراد أن يبسط فكرة تحققت بعد زمان فهو لم يعمل

ولا ريب في أن هناك هوة عميقة بين «البتروس» ڤرن وطائرة لندبرج حين بلغت باريس. ولكن الفرنسيين يأبون ان يسلكوا اسم ڤرن في قصة تاريخ الطيران وهي طويلة متشعبة. ولم يكن ڤرن نفسه يزعم لنفسه فضلاً في تنبؤاته وهو كان يقول دائماً عن رحلاته اني لا أدعي العلم بل هي موجه نحو الجغرافية» غير ان أخيلته أصبحت «برغمه» حقائق ملموسة، ففي رحلة «من الأرض الى القمر» وصف ڤرن المنظار العظيم الذي انشأه ليتتبع القذيفة وهي تحمل الرجل عبر طبقات السماء، وصفه في دقة وفي اسهاب فلقد كان منظاره عظيماً يحتوي على مرآة قطرها ١٦ قدماً تستطيع ان تكبر أصغر نقطة على السماء بمقدار ٤٨٫٠٠٠ مرة. ولقد أقام منظاره على قمة سامقة من الجبال الصخرية ليتفادى اضطراب طبقات الهواء السفلية

هكذا كتب ڤرن منذ ٨٠ سنة على أثر الحرب الأهلية الأميركية. واليوم يسير العمل في كلفورنية لانجاز منظار فلكي فيه كل ما قال ڤرن. فمرآته العاكسة قطرها ١٦ قدماً، وهي أكبر مرآة في العالم، ثم هو يبنى على قمة جبل بالومار لكي ينأى عن الاضطرابات الهوائية التي حاول ڤرن ان يجتنبها وحين يتم اعداده تكون قوة تكبيره هي نفس القوة التي في المنظار الذي تخيلهُ ڤرن. وكان أثر ڤرن — في كثير من الأحايين — غير مباشر، فلقد كتب مركوني في رسالة نشرت في سنة ١٩٢٢ «لقد أثر جول ڤرن في الناس فجعلهم يرون الرؤى، ثم غرس فيهم الرغبة في ان يفعلوا شيئاً، ثم استهلم ليفعلوا»

وأيقظت رؤى ڤرن أطماع الكثير، فان أسماء بيرد وبيب وكاستريت كلها ترتبط برشائج متينة برؤى ڤرن. فما يروى ان الأميرال ريتشارد بيرد قال حين طار صوب القطب: ان جول ڤرن هو الذي يرشدني. وحين هبط وليام بيب الى أعماق المحيط في كرته المعروفة «بكرة الأعماق» [1] كان جول ڤرن في كتابه «عشرون الف فرسخ تحت البحر» هو الذي حرك رغبته في رؤية الأسرار التي استقرت تحت أطباق الموج. وحين أخذ نوربرت كاستريت يكشف عن شبكة الأنهار الجارية تحت الأرض في اوربة كان يستحثه سطر من كتابه المفضل «رحلة الى مركز الأرض» الذي كتبه جول ڤرن

(١) بالمختصر راجع مقتطف يوليه ١٩٣١ صفحة ٣٣ «الغوص الى الاعماق»

وقد انقضى أكثر من ربع قرن وجرائد العالم تنشر قصصاً عن نتائج جديدة لأحلام ڤرن فالسيارات، ورحلة السير هيبرت ولكنز بالغواصة تحت جليد المناطق المتجمدة[1]، وشروع العالم الفرنسي كلود[2] عن استخراج طاقة حرارية من البحر، والتصوير الفوتوغرافي بالألوان، والشهاب المنطلق الى القمر، والتلفزة، والقطار السريع المندفع بضغط الهواء و... كل هذه أحلام تحققت

والآن تسيطر على أذهان العلماء الأبحاث الخاصة بالذرة، ولكن ڤرن في كتابه « مطاردة الشهاب » الذي طبع في سنة ١٩٠٨ بعد وفاة المؤلف أشار غير مرة الى طاقة الذرة وامكان تحويل العناصر بعضها الى بعض

ولقد كان جول ڤرن يبغض في حياته شيئين : الحرب والأمبراطورية الالمانية . وفي كثير من كتاباته تتراءى كراهيته للالمان . وفي كتابه « حظ بيجم » يبدو احتقاره لكل ما هو تيوتوني من خلال أسلوبه التهكمي ، وان نبوءتين في كتابه « حظ بيجم » تحققتا وهما : المدافع ذات المدى الطويل، والمدينة الحديثة . وحين كتب جول عن مدفعه الضخم كان يبدو كلامه وهماً . ولو أن عمره امتد ثلاث عشرة سنة لكان رأى بعينيه خياله وهو يتحقق في المدفع الالماني « برتا الكبير » الذي انطلقت قذائفه سنة ١٩١٨ مسافة ٧٦ ميلاً وسقطت على باريس

وان كثيراً من الناس ليقولون ان معلومات جول ڤرن في العلوم كانت ضحلة . وهذا صحيح الى حدٍّ ما . ولكنه كان طالب علم متحمساً في الطب . وقد راجع قبل كتابة بعض رواياته خمسمائة كتاب ورسالة . وكانت خزانته تحوي مجموعة نفيسة من كتب الجغرافية والرحلات . ولقد جمعت مذكراته على مدى السنين فكانت حوالي ٢٥٠٠٠ ملف حسنة الترتيب دقيقة المسارد

ولقد كان أرستيد بريان السياسي الفرنسي طالباً في الرابعة عشرة حين لقي جول ڤرن أول مرة . وحين أراد أن يملي تاريخ حياته وهو رئيس حكومة فرنسة ، أخذ يشرح ما كان بينه وبين جول ڤرن فقال انني أذكر تماماً داره وكان يغلب عليها جو ريفي عادي .. وهناك وضعت قصص الرحلات العجيبة والمخاطرات المجيدة .. وأذكر انه وضع على الجدران عدداً من السبورات كتب عليها رموزاً عديدة هي أعداد ومعادلات جبرية . لا ريب في انها كانت الاسس التي بنى عليها أخيلته ، وفي الحق لقد كان يعمل على قواعد ثابتة من العلم والرياضة ، وكانت حساباته مضبوطة . تلك الأعداد والمعادلات التي كانت منتشرة على سبورات كثيرة أصبحت جميعاً — على الايام — حقيقة ملموسة

(١) مقتطف نوفمبر ١٩٣٠ صفحة ٣٨٨ (٢) انظر مقتطف هذا الشهر بحث الطاقة المحركة من البحر